لماذا يغيّرُ اسمَه كلُّ مَنْ يصيرُ راهبًا؟

للقدِّيس نكتاريوس أسقف المدن الخمس

لقد حافظَ الرهبانُ الأبرارُ، الذين تعهَّدوا أنْ يعيشوا حياةً فاضلةً، على عادةِ تغييرِ اسمِهم. وهذا يصيرُ لسببَينِ مهمَّين. السببُ الأوَّلُ هو نكرانُ الحياةِ السابقةِ بالكامل، والتذكُّرُ المستمرُّ لهذا التغيير، والسببُ الثاني هو أنْ نتمثَّلَ بالقدِّيسِ الذي اتَّخذْنا اسمَه في مسيرةِ حياتِنا. يساعدُنا تغييرُ الاسمِ أنْ ننسى الماضي، وأنْ نتذكَّرَ باستمرارٍ التغييرَ الحاصلَ لذاكَ الذي غيَّرَ طريقةَ حياتِهِ وكلَّ واجباتِهِ، التي يجبُ أنْ يتمِّمها بمحبَّةٍ كبيرةٍ ورغبة.

الاسمُ مرتبطٌ بالشخصِ إلى حدٍّ كبير، لدرجةِ أنَّنا لا نستطيعُ أنْ نفصلَ شخصيَّتَنا عنه. لذلك، ذكرُ الواحدِ يجلبُ الآخرَ إلى الذاكرةِ، والتطرُّقُ إلى الواحدِ يصيرُ إلى الآخرِ في الوقتِ ذاتِه. وبما أنَّنا نملكُ الاسمَ القديمَ فلا شكَّ في أنَّنا نمتلكُ تذكُّرًا غيرَ منقطعٍ للإنسانِ القديم.

لقد تمَّتِ المحافظةُ على عادةِ تغييرِ الاسم، بسببِ القوَّةِ الأخلاقيَّةِ التي يمتلكُها (التغيير). ولكنَّ تغييرَ الاسمِ يفقدُ قوَّتَهُ، عندما تتوقَّفُ إرادتُنا عن تتميمِ التعهُّداتِ وتطبيقِها، التعهُّداتِ التي تذكِّرُ الرهبانَ بالاسمِ الجديد. هذا يحدثُ لأنَّ الإنسانَ القديمَ يحيا في داخلِهم ويحبُّونَه أكثرَ من الجديد، ولذلك، لا يبالونَ بالتذكيرِ المستمرِّ الحاصلِ لهم في كلِّ مرَّةٍ ينادونَهم بالاسمِ الجديد. هذه اللامبالاةُ بالواجبات، التي تذكِّرُ الرهبانَ بالاسم، تشهدُ على وجودِ سوءٍ آخر، وهو إقصاءُ صوتِ الضمير. إذ إنَّ

في كلِّ إقصاءٍ لواجباتِ الحياةِ الجديدة، التي تذكِّرُ دائمًا بالاسمِ الجديد، يثورُ الضميرُ ويعترض، ولكنْ ما مِنْ أحدٍ يسمعُ له، لأنَّ السيطرةَ هي للإنسانِ القديم، الذي يزدري بحقوقِ الإنسانِ الجديد، التي يعبِّرُ عنها صوتُ الضمير. يصلُ هذا الازدراءِ إلى مثلِ هذا الحد، بأنْ يرفضَ القبولَ بصوتِ الضمير، وبأنَّ كلَّ ما يصدرُ عنهُ هو حماقةٌ وغيرُ معقول، وفي النهايةِ يفرضُ عليه الصمت. هذه الحالةُ تشبهُ تصلُّبَ الضمير. أمَّا الراهبُ الذي يزدري الصوتَ الذي يقضي بحفظِ واجباته، فهذا مصابٌ، ويحٌ له. هذا سيُدانُ، لأنَّهُ لم يعشْ بحسبِ اللّٰه، ووضعَ أناهُ ومعرفتَه الخاصَّةَ فوقَ معرفةِ الآباءِ الأبرار، ولم يقدِّمْ ما هو صالح.

لقد قدَّمَ الأخوانِ قايين وهابيل تقادمَ للّٰه، لكنَّ قايينَ لم يقدِّمْ تقدمةً صالحةً وقد جرَّبَهُ اللّٰه. وعوزيًا قدَّمَ للّٰهِ بخورًا في مبخرةٍ ذهبيَّة، ولكنَّه أُدينَ، لأنَّ تقدمتَهُ لم تكنْ صالحة. وشاول أيضًا قدَّمَ تقدماتٍ للّٰهِ ولكنَّهُ أدينَ هو وأهلُ بيته، لأنَّهُ لم يقدِّمْ عطيَّةً صالحة. واليهودُ أيضًا قدَّموا للّٰهِ ذبائح، ولكنَّ اللّٰهَ لم يقبلْها وكان يقول: «نفسي تمقتُها»، حتَّى إنَّه لا يكفي لكي يُرضِيَ الإنسانُ اللّٰهَ أنْ يقدِّمَ فقط ذبائح، وعطايا وصلوات، بل أنْ يعملَ تقدمةً صالحة، أي، أنْ يملِكَ إحساسًا بنقصِهِ وعدمِ استحقاقِه. ولكن، لكي يوجدَ مثلُ هذا الإحساس، على الواحدِ أنْ يمتلِكَ نكرانًا للذاتِ كاملًا وخضوعًا لوصايا اللّٰه، وتواضعًا وعملًا روحيًّا غيرَ منقطع.

فإنْ كنَّا سنقدِّمُ عطايا للّٰهِ باستحقاق، فلنقدِّمْ له العطيَّةَ الأُولى والأعظمَ وهي قلبُنا. كيفَ ستصيرُ ذبيحتُنا وتقدمتُنا حسنةَ القبولِ عندَ اللّٰه، عندما لا نكونُ نحنُ مستحقِّينَ أنْ نقدِّمَ عطيَّةً مرضيَّة، ولا حتَّى الأمورَ المقدَّمةَ هي مستحقَّةُ القبولَ عندَ اللّٰه؟ لذلك، لا نعاودُ الانقطاعَ في طلباتِنا وتقدماتِنا، إذا كنَّا فيما قبلُ لا نهتمُّ بكثيرٍ من الجدِّ، عن أن نجعلَ أنفسَنا مؤمنينَ مستحقِّينَ، وذبائحَنا حسنةَ القبولِ لدى اللّٰه. لذلك، يقعُ في ضلالٍ كبيرٍ كلُّ مَنْ يعتقدُ أنَّ كلَّ خدمةٍ وكلَّ تقدمةٍ مقبولةٌ عندَ اللّٰه.

الخدمةُ المرضيَّةُ والعطيَّةُ الحسنةُ القبولِ لدى اللّٰهِ هي «روحٌ مستقيمٌ وقلبٌ نقيٌّ»، وليسَ روحًا متكبِّرةً وعاتيةً وقلبًا قاسيًا وأهوائيًّا.

هذا هو إذًا ما يطلبُهُ تغييرُ الاسمِ في الدرجةِ الأُولى. أمَّا في الثانيةِ فيطلبُ ضرورةَ أنْ تكونَ حياةُ القدِّيسِ، الذي نحملُ اسمَه، وطريقةُ عيشِهِ نموذجًا للفضيلةِ والكمال. وأن نجاهدَ في كلِّ حياتِنا كي نصيرَ

كاملينَ تابعينَ مثالَه. يقوِّي نموذجُ فضيلةِ القدِّيسِ المجاهدَ بشكلٍ كبير، فيتعلَّمُ منه أنْ يتواضعَ حتَّى ولو كانَ يتحدَّرُ من عائلةٍ ملَكِيَّة. يتعلَّمُ أنْ يصبرَ حتَّى ولو كانتِ الأعباءُ لا تُحمَل. يتعلَّمُ أنْ يحبَّ حتَّى الذين يكرهونَه. يتعلَّمُ أنْ يُكرِّمَ أولئك الذين يهاجمونَه. يتعلَّمُ أنْ يحيا من أجلِ إخوتِه، وأنْ يموتَ من أجلِ ناموسِ اللّٰهِ ووصاياهُ الإلهيَّة. يتعلَّمُ أنْ يحبَّ المطرحَ الأخيرِ ويفرحَ أنْ يعيشَ متخفيًّا. وما الذي لم يتعلَّمْه؟ إنْ أنا أحصيتُ كلَّ ما أتعلَّمُه من مثالِ القدِّيسين، فلنْ يسعَني الوقتُ ولا الورقُ لأذكرَها كلَّها.

المصدر: القدِّيس نكتاريوس، «خمسة وثلاثون رسالة»، ص.٨٧-٩١.

نقلَه إلى العربيَّة رهبانُ دير رقاد والدة الإله - حمَطوره

دير رقاد والدة الإله - حمَطوره ©

٢٠١٣